القصة حول العالم

بقلم : على شلش

الضحكة الأخيرة .. في غرب افريقيا

جيرسركوك مثقف أمريكي ريفي يعمل أستاذا بجامعة هوارد ، وقد تخصص في آداب وفنون منطقة غرب افريقيا والبحر الكاريبي ، ونال عدة درجات علمية من باريس وهايتي وامريكا ، وألف مجموعة من الدراسات القيمة حول آداب هايتي وغرب افريقيا .. منها هذه الدراسة التي نعرض لها بعد قليل ، وتتناول موضوع القصة وفنونها وسماتها في غرب القارة .. كما انه يشغل منصب رئيس المجلس التنفيذي للجمعية الأمريكية للثقافة الافريقية .. وهي جمعية اسسها الزنوج الأمريكيون الذين شهدوا أول مؤتمر عقد بباريس للكتاب والفنانين الزنوج عام ١٩٥٧ .

لكن اية قصة يقصدها كوك بدراسته هذه التي حمل عنوانها «الضحكة الأخيرة» ؟ وما ميدان هذه الدراسة وما أداتها ؟؟

من المعروف ان الآداب الافريقية التي عاشت مكتوبة في هذا القرن فيما وراء الصحراء الكبرى ارتبطت ـ نتيجة للسيطرة الاستعمارية ـ بثلاث لغات أوربية هي الانجليزية والفرنسية والبرتغالية .

وقد استأثر كل منها بمنطقة تمتد عبر هذه الرقعة الشاسعة التي تمتد في أعقاب الصحراء حتى شواطىء المحيط في أقصى الجنوب . فتركزت الانجليزية في الشرق والجنوب وتضع بقاع في الغرب ، وسيطرت الفرنسية على الغرب وجزء من الوسط واجزاء اخرى في الشرق . أما البرتغالية فتسللت الى عدة بقاع في أقصى الشرق وأقصى الغرب معا ، ومع هذا فثم ارتباط شرطي بين كل من هذه اللغات الثلاث وواحدة من الجهات الأصلية الأربع . فاذا جاء ذكر الجنوب على سبيل المثال يتلوه ذكر الانجليزية . أما اذا جاء ذكر الغرب فان ذكر الفرنسية سرعان ما يقفز الى الأذهان ، ومن ثم يكون الحديث عن القصة في الغرب حديثا أساسه اللغة الفرنسية التي سيطرت على السنغال والكاميرون ، وغينيا ومالي وغيرها من أقطار الغرب . وليس من الغرابة اذن أن تقتصر دراسة كوك على الغرب المتحدث بالفرنسية باعتباره موضوع تخصصه في الوقت نفسه .

ويعود الى دراسة كوك فنجده يستهلها بقوله ان الناقد الفرنسي برنردان دي سان بيير » (١٧٣٧ ـ ١٨١٤) صاحب قصة بول وفرجيني المعروفة انتقد في كتابه « رحلة الى جزيرة فرنسا » فلاسفة عصر الاستنارة وأخذ عليهم تصدرهم لمسألة خطيرة كالرق الزنجي . ولعله كان يشير الى بعض التعليقات الساخرة التي جاءت في « روح القانون » لمونتسكيو مثل « من المستحيل الاعتقاد بأن الله ـ بحكمته ـ وضع روحا خيرة في جسد حالص السواد » ! ! ! او في « رسائل من اميديد » لفولتير مثل وصف البطل لافريقيا بقوله « يا له من طقس جميل تتمتع به هذه السواحل الجنوبية !! لكن ما اقبح السكان ! .. يا لهم من وحوش ! .. ان الطبيعة كلما أحسنت اليها أساءوا اليها » فليس ثمة أحد من هؤلاء الناس يدرك معنى الفن . وثمة سؤال يشيح فيهم .. هو « هل انحدروا من القردة ، أم ان القردة انحدرت منهم ؟ ! »

ومثل هذه النظرات الساخرة المتناقضة مع أفكار رسل الثورة الفرنسية ودعاة الانسانية انما تدلل على عدم التواؤم الفكري والنظرات وحدة النظر الى الأمور . على عكس ما دعا اليه آخرون من امثال لافاييت وهيجو ولامارتين وشنولشر ممن خلقوا اتجاها انسانيا في الأدب الفرنسي .

بل ان السخرية لا تلبث مرة أخرى أن تظهر في القرن الماضي على أيدي كتاب وقصصيين نادوا بالانسان ودعوا الى تعاونه وحبه لأخيه الانسان . ويكفي أن نضرب المثل متلاثة من أشهر كتاب القصة في ذلك القرن وهم بروسبير ميريميه وبلزاك وموباسان . فرغم أن ميريميه استمد فكرة الرقيق في قصة « تامانجو » الا انه استخدم تامانجو نفسه في القصة ، وسخر من جهله ، وأظهره ولوعا بالعش والخمر .. وبالمثل نجد بلزاك الذي عرف الزنوج بانهم « أطفال بالغون » فيما كان ينطق به لسان فوتيران بطل روايته المعروفة « الأب جوريو » . أما موباسان فقد صور الافريقي لقمة من آكلة لحوم البشر . وقس على ذلك ما فعله الكثيرون من أدباء فرنسا وقصاصيها ، وبصفة خاصة البعض منهم ممن انحدروا من أصول افريقية مثل اسكندر دوماس الأب الذي زار افريقيا وكتب عن هيرودوت والحيوانات الخرافية وعروس النار السوداء ، وكل شيء حلا الحقيقة التي توضح أن بعض أجداده جاءوا من هناك .. ففي رواياته الوجيدة التي وضعها عن افريقيا بعنوان « جورج » نجد ان عشرة آلاف افريقي من العبيد يضحون كل شيء من أجل الحرية حتى تقع أعينهم على تراميل خمر في الطريق . كما ذكر ان طموح الافريقي الزنجي لا يكاد يتعدى رغبته في اقتناء مطلة !!! بل انه كان كلما تعرض في رواياته الأخرى للزنوج ذكر الأكليشيهات المعتادة التي طبعت بها كتابات الأوربيين عن الافريقيين مثل الكسل اللصوصية حب الخمر التهريج . وكلها صفات الصقها مفكرو الاستعمار ودعاته بأبناء القارة فيما وراء الصحراء .

وينتقل كوك الى مناقشة تاريخ القصص الافريقي المكتوب بالعربية في غرب القارة . ويذكر ان بواكيرها ظهرت في فرنسا على يد رينيه ماران . احد أبناء غيانا

الفرنسية ، التي نشر عام ١٩٢١ روايته بعنوان « باولا » ، حاول فيها أن يفسر لأبناء قارته ، وأن يظهر قيمهم انسانية لا تقل عما يدعيه لأنفسهم المستعمرون البيض ، ومنذ مارلن رائد كتاب القصة الافريقيين في غرب القارة ، وقد قال عنه ليوبولد سنجور شاعر السنغال ورئيس جمهوريتها الحالي :

« لم يتحرر كتاب حرر الهند الغربية من محاكاة العاصمة الفرنسية ومن الخوف من رجعيتهم الا عن طريق ريمبه مارلن » .

ومن التعبيرات السـاخرة التي اشـتهر بها مارلن ما جاء على لسـان بطل قصته « دعوما » في قوله يصف سلوك البيض ازاء قومه :

« يزعم البيض أن الزنوج يشبهون القردة ، ومع ذلك فهم يدعون القردة في سلام » وفي الفترة من ١٩٣١ الى ١٩٥٢ ظهر عدد كبير من القصص والروايات التي اهتمت بتصوير الحياة في الريف والمدن الصغيرة ، وشقاء الانسان الافريقي ، ونضاله من اجل التحرر ، وكان ذلك تأثير « باولا » ونجاح صاحبها من ناحية ، والتأثر بالأدب الفرنسي واشكاله الفنية من ناحية اخرى ، وذلك دون فقدان الصلة بالبيئة الأصلية . فقد ألح الكتاب على التراث الشعبي ، وبهلوا منه واقاصوا في جمعه وتسجيله والانتفاع بدلالاته . وقلما خلت قصة من الأقوال أو الأمثال الشعبية ، كهذه الطائفة التي نسوقها على سـبيل المثل :

- اصبح حسنك لامراة ، لكن اياك ان تسمحها ثقتك .
- المرأة الحسيلة تحر وراءها شقاء عظيما .
- السمكة الصغيرة لا يشبعها الصياح في معركة بين كلاب البحر .
- ان الضبع الذي يبغي التهام صغيره يجد فيه طعما كطعم العنبرة .
- قلم الله لا يحتاج الى ممحاة .
- لا ينحني المرء من نفع الأرداف حتى يجلس .
- الأسنان المتآكلة لا تقوى الا على أصابع الموز المهترئة .
- لو كان العمل ضيئا طيبا لتهالك عليه الضبع منذ زمن طويل .

وهذه الروح الساخرة الفكهة التي تشيع في الأمثال وغيرها من أنماط التراث الشعبي لانعدم العثور عليها في سياق القصص ، بل انها تشكل سمة بارزة وخصيصة أساسية لكتابات الافريقيين وابداعاتهم ، ففي رواية « حكام الوحل » لمحاك روميي يقول البطل لأمه في مرارة مصحونة بسخرية :

« ان السماء هي مرعى الملائكة ، وهم سعداء ـ لا يشغلهم التفكير في طعام أو شراب ، فلا شك ان لديهم ملائكة سود يقولون عنهم عند الأشغال الشاقة ، مثل مسح السحب وتطييب الشمس عقب غروب العواصف ، بينما الملائكة البيض لا يشغلهم شيء سوى أن يعزفوا كالبلابل طوال النهار ، أو أن يتمحوا في النعاس كما في الصور التي نراها بالكنيسة » .

لكن كيف نشأت القصة وغيرها من انماط الادب المكتوب بالفرنسية في غرب افريقيا ؟ ..

لقد تضافرت عدة عوامل أدت الى تغيير هذا الأدب المكتوب بالفرنسية ، وعلى رأسها :

● نجاح الشعراء الافريقيين الذين غمروا باريس واوربا باشعارهم القوية الأصيلة عقب الحرب الأولى مثل ليوبولد سنجور وليون داماس وايميه سيزير وغيرهم من ابناء غرب القارة الذين تلقوا العلم في العاصمة الفرنسية .

● تأثير الكتاب الأمريكيين الزنوج من امثال ريتشارد رايت وشستر هايمز ولانجستون هيوز الذين الموا على الصلة القديمة المعقودة بين القارة وزنوج امريكا .

● اشتعال الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ وأثرها في اصطاح الوعي القومي بأقطار القارة المغلوبة على امرها .

● ظهور مجلة ودار نشر « الوجود الافريقي » التي كانت بمثابة حركة ثقافية واسعة النطاق اطلعت للعالم اكثر من خمسين كتابا ودراسة ممتازة للافريقيين الذين يكتبون بالفرنسية وكذلك اخوانهم زنوج امريكا كما حدث ازاء هذه الدراسة التي نعرض لها .

● اشتداد حركة التحرر الوطني واعتمادها على أبنائها المثقفين والكتاب .

ونتيجة لكل هذه العوامل السابقة انفسحت الطريق أمام ابناء القارة من الشعراء وكتاب القصة الذين عكفوا على أرضهم ، وصوروا نضال الانسان فيها من أجل التقدم دون تعصب للجنس أو اللون .

ويختتم ميرسركوف دراسته القيمة بقوله ان الافريقي الزنجي الذي عاش عصورا للكتمة والضحك عدة أجيال يشب اليوم تعرفه على جلاديه الذين تجبروا عليه بالأمس وهو لا يشب ذلك من أجل اثارة الضحك عليهم كما فعلوا هم ولكن من أجل أن يضحك هو مع أخيه ومواطنيه ضحكا صافيا خاليا من الحقد والاحتقار .. !

زوايا وأنباء :

● في عدد يوليو قصة بعنوان « هزيمة الحب » للأستاذ فؤاد القصاص ، صدرها بمقدمة ذكر فيها انها قصة بلا أسلوب ، وأنه اكتفى بالأحداث تتتابع .. لتحمل في النهاية مضمون القصة . ثم ترك الرأي في تجربته للقراء والنقاد .

وحتى لا يلتبس الأمر على القارىء ، وكذلك حتى تستقيم مصطلحاتنا النقدية ، أكتفي بالاشارة الى أن « هزيمة الحب » بالصورة التي أرادها لها الكاتب ليست قصة قصيرة نتيجة لتراخي الأحداث وتركيبها ، كما انها ليست قصة بلا أسلوب . فاسلوبها خاص ومعروف ، وهو أسلوب القصة السينمائية او مرحلة من مراحل القصة السينمائية تعرف باسم « المعالجة » ، اي ملخص المشاهد التي يتصلها

السيناريو باللقطات المتسلسلة المتوالية . ومن المعروف أن القصة السينمائية ـ أو ملخصها ـ تعتمد على سرد الأحداث والمواقف سردا مباشرا دون تدخل البيان أو البديع، وبفضل كتابتها بالفعل المضارع بصفة خاصة .

وقد جرت في السنوات الأخيرة محاولات من هذا القبيل في فرنسا فيما يعرف باسم الرواية الجديدة التي دعمت حركة الموجة الجديدة في السينما ، وهي مدرسة فرعم ان بلاغة القصة في تعريتها من بلاغة اللفظ واللغة ، أي تجريدها من التشبيه والاستعارة والتورية وغير ذلك من صور البيان والبديع ، مع الاكتفاء بتحليل الأحداث والمواقف . لكن هذه المحاولات لا تنطبق على ما فعله الأستاذ الغصاص الذي حشد رواية طويلة في بضع صفحات باسم التجديد ، وبالتالي فان « جريمة الحب » ليست أكثر من ملخص أو معالجة لقصة سينمائية يمكن تفصيل السيناريو على أساسها ، على أن يتفق أولا على صلاحيتها للانتاج والتصوير !

● أجي نيل ـ كتاب جديد أصدرته دار جولانسز الانجليزية ، الفه جون فوكنر شقيق الروائي الأمريكي الراحل وليام فوكنر . وفيه يحكي جون عن الصبا والشباب في حياة شقيقه التي قضاها كلها تقريبا في الريف ، دون أن يغادره الا في المناسبات القليلة مثل الاتصال بصحيفة أو بشركة سينمائية أو لتسلم جائزة أدبية كما حدث حين سافر الى السويد لنيل جائزة نوبل قبيل وفاته .

الدار [illegible] للتأليف والترجمة والنشر

[illegible] للتأليف والترجمة

تقدم السلاسل الذهبية هدايا تعرف قيمتها ...

أضواء جديدة على الحروب الصليبية

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

تطلب من دار القلم ١٩ شارع سوق التوفيقية - القاهرة

زيارة السيدة العجوز

تأليف: فريدريش دورنمات ترجمة وتقديم الدكتور مصطفى ماهر

مراجعة الدكتور محمد محمد النعماني

تطلب من المكتبة القومية ٥ ميدان عرابي - القاهرة - ت ٤٦٣٨٢

سلسلة تتناول بالتعريف والبحث والتحليل روائع الكتب التي أثرت في الحضارة الإنسانية

تطلب من المكتبة القومية ٥ ميدان عرابي - القاهرة

إسحاق الموصلي

الموسيقار العربي - تأليف الدكتور محمود أحمد الحفني

تطلب من مكتبة مصر ٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

المجلة التي تعرض الكتب وتحللها بأقلام ثلة ممتازة من الكتاب المتخصصين

تطلب من الباعة ومن المكتبة القومية ٥ ميدان عرابي

الأمم المتحدة "وكالاتها المتخصصة"

الدكتور سليمان محمد سليمان

تطلب من دار القلم ١٩ شارع سوق التوفيقية - القاهرة